المدرسةُ النّحويّةُ البغداديّةُ
البدايّةُ والتّطور

م .د. هدى ناجي البديري*

● المقدمة :

كانت النقلة العظيمة التي شـهدتها بغداد في الحضارة والفكر قد مهدت أذهان الدارسـين لتقبـل النحـو البصري المتأثـر بالفلسـفة والقائم على الجـدل والتعليل والاحتجـاج وقـد تجلَّى هذا في أوضح صورة بورود المـبرد(ت ٢٨٥هـ) بغداد بنحوه المتأثـر بالفلسـفة الكلاميّة ، وكان ورود بغداد متحولا للـدرس النحوي فيها ، فما كاد يسـتقر بالمبرّد المقام في بغداد حتى لفت إنتباه الدارسين إلى نفسه فأقبلوا عليه يفاتشـونه ويناظرونه في مسـائل اللغة والنحو ، فرأوا فيه طـرازا جديدا ونمطا في الـدرس لـم يعهدوه من قبل ولم تمـض الأيام حتى انضمّ إلى مجلسـه نفرٌ من أنبه تلاميـذ ثعلب (ت٢٩١ هـ)، وفي مقدمتهم أبو إسـحاق الزجّـاج (ت ٣١١ هـ)الذي انقطع عن مجلس ثعلب ليلازم المبّرد يأخذ عنه ويقرأ عليه كتاب سـيبويه (ت١٨٠ هـ)، وأخـذ نفرٌ آخرون من تلاميـذ ثعلب يختلفون إلى المجلسـين ويأخذون عن الشيخين واستطاع المبّرد بقوة بيانه وحذقه بأساليب الجدل أن يستأثر بإعجاب الأمراء ويجتذب اليه أنبه الدارسين ، واستطاع تلاميذه بحذقهم بأسلوب الجدل ، وقدرتهم على اسـتخراج القياس والعلل أن يفرضوا مذهبهم الجديد الذي أخذوه عن المبّرد في مجالس الدرس ويبسـطوا سلطان المذهب البصري عليها بالنابهين من تلاميذهم الذين آلت اليهم الرئاسة في النحو كأبي بكر بن السّراج (ت٣١٦ هـ) وأبي القاسـم الزجّاجي(ت ٣٣٧هـ) وأبي سـعيد السـيرافي (ت٣٨٤هـ) وأبي الحسن الرّمّاني (ت٣٨٦هـ) وأبي علي الفارسي (ت٣٧٥ هـ) وغيرهم[1].

* جامعة بغداد – مركز احياء التراث العلمي العربي

وقد ترددت في مؤلفات المحدثين تسميات مثل (مدرسة بغداد) أو (نحاة بغداد) أو (المدرسة البغدادية) أو(المذهب البغدادي) أو(البغداديين) وهم يعنون بذلك مذهبا نحويّا خاصّا لا هو بالبصري الخالص، ولا هو بالكوفي الصريح ، وإنّما هو مذهب يقوم على الإطلاع على النحويين، والخلط بينهما ثم الانتخاب منهما لتكوين آراء خاصّة بهذا الدارس أو ذاك انتخبها من آراء الفريقين فقد يكون أكثر ما أختاره من البصريين فيصفونه بأنّه الى البصريين أميل ، أو أنّه يميل إلى البصريين وقد يقع العكس فيقال فيه : يميل إلى الكوفيين ، أو إلى مذهب الكوفيين أميل، ويرون أنّ السبب في نشوء هذا المذهب هو تلاقي المذهبين البصري والكوفي في بغداد على يد شيخين من شيوخهما تنافسا على رئاسة النحو في بغداد وعملا على نشر مذهبيهما بين الدارسين وهذان الشيخان هما أبو العباس ثعلب الكوفي وأبو العباس المبرّد البصري[٢].

وقد وقف المحدثون من وجود مدرسة بغدادية أكثر من موقف ، وتتضح آراؤهم بالآتي :

الأوّل : ذهب بعضهم إلى وجود مدرسة ثالثة من البصريين والكوفيين وهم البغداديون، وكان من أوائل القائلين بهذا جماعة من المستشرقين منهم (فلوجل)ناشر كتاب (الفهرست) لابن النديم (ت ١٨٧٠م) ، الذي نشر بحثا في المدارس النحوية عام ١٨٦٢م[٣]، وتابعه بروكلمان الذي قال: «وقد قسّم علماء العربية مذاهب النحاة الى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد»ثمّ قال: وسنحتفظ نحن أيضا بهذا التقسيم على الرغم مما يبدو فيه من أنّ الخلاف المزعوم بين مناهج تلك المذاهب لم ينشأ إلّا على أساس المنافسة بين المبرّد وثعلب[٤]، ويبدو أنّه يرى أنّ كل من نزل ببغداد من النحاة بصريين كانوا في آرائهم أم كوفيين يمكن أن يعدوا بغداديين ما داموا نزلوا ببغداد ، قال : «وقد كان كثير ممن ذكرناهم أخيرا في مدرسة البصرة نزلوا ببغداد التي أخذت مدرستها النحوية تحاول التوفيق بين مدرستي البصرة والكوفة منذ القرن الرابع الهجري ، وإذا فقد كان ممكنا أن يعدوا أيضا من رجال مدرسة بغداد»[٥].وذهب المستشرق»(Howell) إلى وجود مدرسة بغدادية، وقال أنّ ابن السراج ومبرمان يمثلانها [٦].

وكان أوّل من تكلم على مدرسة بغداد من الباحثين العرب الأستاذ أحمد أمين حيث قال بعد أن تحدث عن مدرستي البصرة والكوفة : «ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سببا في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما ، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة» ثم نقل عبارة ابن النديم وقال: «ومثله في ذلك أبو حنيفة الدينوري فقد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعا»[٧] .

وكان أكثر المتحدثين عن هذا المذهب وخصائصه وضوحا وإيجازا الشيخ محمد الطنطاوي الذي صرّح بوجود (فريق خالط) بين البصري والكوفي وسمّاه في موضع آخر (مازجا بين المذهبين) ورأى أن هؤلاء الذين خلطوا النحو أو مزجوه وإنْ قلوا يمثلون مدرسة جديدة لها خصائصها ، وذلك حيث كانت حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين التي جعلت من دواعي تغلب الانحياز الى أحد الطرفين على اختيار مذهب خليط، حتى إذا

قضى المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث الهجري أسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النعرة الحزبية فعرض العلماء المذهبين على بساط البحث والنقد ... نجم عن ذلك كله أنّهم اختلفوا طرائق قددا، فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصريّة ومنهم من غلبت عليه النزعة الكوفية ، ومنهم من جمع بين النزعتين، وهذا أوضح ما وجدته مما فسرت به عبارات المتقدمين (خلط المذهبين) و(خلط النحويين) و(هو للمذهب البصري أميل) و(خلط المذهبين وكان ميله مع الكوفيين) ، وكان قيّما بعلم البصريين وبعلم الكوفيين [٨].

وذهب الأستاذ سعيد الأفغاني إلى أنّ الكوفيين نشروا نحوهم في بغداد التي قصدها البصريون بعدهم ، ونشأت عن هذين الفريقين طبقة جديدة في بغداد اتسمت بالاختيار من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي ، وجعل من خصائصه ما جاء في قول أبي الطيب اللغوي: « فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم الى بغداد قريبا وغلب أهل الكوفة على بغداد وحدثوا الملوك فقدّموهم ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط بهم العلم» وعلّق عليه بقوله: «وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال»[٩].

وكان أشد من دافع عن وجود مدرسة بغداديّة خلطت بين المذهبين واتخذت منهما بعض خصائصهما ليكون مذهبا جديدا أو مدرسة جديدة هي التي سُميت (المدرسة البغدادية) الدكتور أحمد مكي الأنصاري الذي قال أنّ خصائص المدرسة البغداديّة «ما هي إلاّ امتزاج خصائص المدرستين البصرية والكوفية معا وظهور أثر المدرستين في هذا المذهب الجديد الذي عُد الفرّاء مؤسسه لما يقوم عليه مذهبه من تحرر ومزج وتجديد » [١٠].

وكان الدكتور محيي الدين توفيق من الذين ذهبوا الى وجود هذه المدرسة بعد انتقال الدرس النحوي إلى بغداد حيث أدى هذا الانتقال الى تطور الدراسات النحويّة واللغويّة مكوّنا مدرسة بغداد النحويّة التي يقوم منهجها على الانتخاب من المدرستين [١١].

وسلّم الدكتور شوقي ضيف بوجود مدرسة بغداديّة يقوم منهجها على الانتخاب من آراء المدرستين البصريّة والكوفيّة مع فتح أبواب الاجتهاد والخلوص إلى آراء مبتكرة ، وقد تداول هذه المدرسة جيلان : جيل أوّل كانت تغلب عليه النزعة الكوفيّة وهو الذي يدور في كتابات ابن جنّي باسم البغداديين من أمثال ابن كيسان ، ثم جيل ثانٍ خلف هذا الجيل كانت تغلب عليه النزعة البصريّة على نحو ما يلقانا عند الزجّاجي ثم أبي علي الفارسي وابن جنّي [١٢].

واثبت الدكتور مازن المبارك وجود مدرسة بغداديّة ورأى أنّ الزجّاجي بغدادي النزعة مع ميله إلى الأخذ بأقوال البصريين فهو يحيط علما بالمذهبين إلاّ أنّه يعتدل بينهما بلا تعصب، فالبغداديون هم الذين أخذوا بآراء الفريقين ووقفوا بين المذهبين إلاّ أنّ ميلهم مع أحدهما في الغالب [١٣].

ويتضح من كلام الأستاذ طه الراوي أنه ممن يثبتون وجود مدرسة بغدادية [١٤]، ومثل هذا كان رأي الدكتور يوسف خليف الذي قال:«وكان التقاء الكوفيين بالبصريين سببا في عرض مذاهب المدرستين واتجاهاتهما ثم

نقدهما والانتخاب منهما» [١٥] .

وقد اثبت الدكتور الجواري وجود مدرسة بغداديّة ولم يقل كما قال الآخرون بأنها خلطت بين المذهبين وإنّما تفرد بين القدماء والمحدثين بالقول بأنّ النحو البغدادي إنّما هو نحو أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب . وهذا رأي غير معروف وهو أوّل من قال به [١٦].

وجعلت د. هدى محمود قراعة الزجّاج مؤسسا للمذهب البغدادي في مقدمتها لكتاب (ما ينصرف وما لاينصرف) لأنّه كثيرا ما يتردد في سمعها أنّ المذهب البغدادي ما هو إلّا خلاصة المذهبين الكوفي والبصري [١٧].

الثاني: ذهب بعض آخر من المحدثين إلى نفي وجود مدرسة نحوية باسم (مدرسة بغداد) أو التشكك في وجودها ، وقد مثل هذا الرأي بعض الباحثين منهم (جوتولد فايل) محقق كتاب الإنصاف الذي شكّك في وجود مدرسة جديدة قامت على أساس الانتخاب من مزايا كلتا المدرستين لأنّه ـ وإن كان يرى أن لتسمية تلاميذ ثعلب والمبّرد بالبغداديين وجها من الحق ـ كان يرى أنّ البغداديين لم يكونوا ليمثلوا مدرسة ذات إتجاه خاص أساسه المزج أو الاختيار ولكنهم يمثلون دراسة في دائرة النحو البصري [١٨].

وقال بما يقرب من هذا الرأي الدكتور عبد الفتاح شلبي الذي ذهب إلى أنّه لم تكن هناك «مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها ، غاية مافي الأمر أن رجالا خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية ، فرأوا رأيا من هذه ورأيا من الأخرى وإن كانوا في مذهبهم الأصيل يميلون إلى هذه أو إلى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين فحسب « فابن كيسان يخلط المذهبين لأنه أخذ عن المبّرد وثعلب ، وكان ميله الى البصريين أكثر، وكذلك ابن قتيبة وابن شقير شديد التعصب مع الكوفيين مع اعتقاده مذهب البصريين ، ويضع الدكتور عبد الفتاح شلبي ـ بناء على هذا التفسير ـ أبا علي الفارسي فيمن يخلطون المذهبين ، لأنّه على الرغم من نزعته التي تميل به إلى البصرية، كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية» [١٩].

وكان من بين المتعرضين للكلام على المدرسة البغداديّة الدكتور فاضل صالح السامرائي وقد عرض لأقوال المثبتين وجود هذه المدرسة والنافين ذلك الوجود من القدماء والمحدثين، ورأى «انّه لا يصح إطلاق اسم مذهب أو مدرسة إلّا أن تكون هناك أسس مستقلة وآراء متميزة واضحة محددة وإلّا فهو مذهب إمّا بصري وإمّا كوفي أو نحوهما و... أن المكان وحده لا يصح أن يسم المدرسة باسم ما فتعد مدرسة نحوية مستقلة كما لايصح أن يسم القائمين بها ، فلا يصح مثلا عدّ المبّرد إلّا من البصريين ، وثعلب إلا من الكوفيين مع أنهما سكنا بغداد وهب أن نحويا بصريا سكن مدينة ما وبقي محتفظا بآرائه البصرية فهل يعد هذا إلّا بصريا ؟» [٢٠].

الثالث : هناك من الباحثين من ذهب في مدرسة بغداد أكثر من مذهب ، ويمثل هذا الإتجاه الدكتور مهدي المخزومي ، فقد اثبت في كتابه (مدرسة الكوفة)وجود مذهب نحوي يسمى (المذهب البغدادي) وسمّاها أيضا (المدرسة البغداديّة) قال: «وأمّا البغداديون، فقد أخذوا عن البصريين والكوفيين ، ومادة الدرس عند هؤلاء وهؤلاء إنّما هو النحو البصري المتمثل في كتاب سيبويه ، وكل مافي الأمر أنهم خلطوا أقوال هؤلاء وهؤلاء وانتخبوا

مـن هـؤلاء وهـؤلاء»[٢١]، وقال في نـص آخر : «فليس المذهب البغدادي إلّا مذهبا انتخابيا فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعا»[٢٢].

وقـال في أوضـح أقواله وأكثرهـا إصرارا على وجود مدرسـة بغداديّة : «أمّـا أصحاب ثعلب الذين ذيلنا اسـمه بأسـمائهم فليسـوا جميعا كوفيين ، بل أكثرهم ينتمون إلى مدرسة جديدة هي مدرسـة بغداد ، وهي المدرسـة الانتخابية التـي قامت على خلط المنهجين من المدرسـتين البصرية والكوفية ، لأنهـم أخذوا عن بصريين وكوفيين ، وتأثروا بهؤلاء وهؤلاء» [٢٣] .

هـذه الأقـوال جميعهـا تدلنـا عـلى اعتراف الدكتـور المخزومـي بوجـود مدرسـة نحوية بغداديـة قائمـة عـلى الانتخاب مـن المذهبين البصري والكوفي نتيجة لأخذ الدارسين فيها عن المبّرد البـصري وثعلب الكوفي حيث كان وجود المبّرد في بغداد نقطة تحول في تاريخ المدرسـة الكوفية فقد تـسرب إلى مجلس المبرّد كثير من أصحاب ثعلب وتلاميذه فنشأت عنهم (مدرسة بغـداد)، وقد خالف الدكتور المخزومي ما قاله في كتابـه (مدرسـة الكوفـة) ونفـى أن تكون هنـاك مدرسـة بغداديـة أو مذهـب يصح أن يسـمى بـالمذهب البغدادي ، وذلـك في كتـاب (الدرس النحوي في بغداد). حيث قال : « تردد اسـم البغداديين كثـيرا في القـرن الرابع بإزاء الكوفيـين والبصريـين، حتى ليخيـل للدارس أنّ البغداديين كانـوا يمثلون جماعة ثالثة لهم طريقتهم الخاصّة ، ومذهبهم المتميز»[٢٤].

وقال: «إنّ الأسـاس الذي بنى عليه المحدثون فكـرة المذهـب البغدادي هـو التلمـذة لثعلب والمـبرّد، والتعمـق في مصنفاتهمـا ومصنفات شـيوخهما مـن البصريين والكوفيـين ، وليس بـين تلاميذ الرجلين من أفـاد منهما وتعمق في مصنفاتهمـا ووقف عـلى علـم الكوفيين وعلم البصريين كأبي إسحاق الزجّاج» [٢٥].

ذهـب الدكتور مهدي المخزومـي إلى أنّ قول المحدثـين بهذيـن القولـين وتسـميتهم لهؤلاء الذيـن خلطوا المذهبين بالبغداديـين إنّما كانوا يصدرون فيه عمّا جاء الفهرسـت بـ (جماعة من علمـاء النحويـين واللغويين ممـن خلطوا المذهبـين) ودليله على هـذا أنّ المحدثين كانوا يقيمون المذهـب الجديد على أسـاس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين وهو الذي كان ابن النديم يعبر عنه بـ(خلط المذهبين) [٢٦].

وسـأتحدث عن اثنين من أبرز أعلام المدرسـة البغداديّـة وهما : أبو العبـاس محمد بن يزيد المـبرّد (ت ٢٨٥هـ) وأبو إسـحاق إبراهيم بن السري الزّجاج (ت٣١١هـ) .

● **المبرّد :**

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسـان بن سليم بن سـعد بن عبد الله بن زيد بـن مالك بن الحارث بـن عامر بن عبد الله بن الأزد بن الغوث ، أبو العباس الأزدي ثم الثمالي، المعـروف بالمـبّرد ، شـيخ أهل النحـو وحافظ علـم العربيّـة ، كان مـن أهل البصرة فسـكن بغداد وروى بها عن أبـي عثمان المازني وأبي حاتـم السجسـتاني وغيرها من الأدبـاء وكان عالمـا فاضلا وحافظ علـم العربيّـة ، كان من أهل البصرة فسـكن بغـداد وروى بها عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وغيرها مـن الأدبـاء وكان عالمـا فاضلا موثوقـا به في الرواية حَسـن المحاضرة وكثير النوادر وحدّث عنه نفطويـه النحوي ومحمد بـن أبي الأزهر واسـماعيل الصفـار، وأبوبكر الصـولي ، وأبو عبـد الله الحكيمي ، وأبو سـهل بن زياد، وأبو علي الطوماري ، وجماعة لايتسع ذكرهم[٢٧] .

وهو من ثُمالة قبيلة من الأزد ، وانشدنا أبو بكر بن السرّاج عن أبي العباس لعبد الصمد بن المعذّل يعاتبه [٢٨]:

سألنا عن ثُمالةَ كلّ حيّ
فقال القائلون ومَن ثُمالهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم
فقالوا زدتنا بهم جهاله
فقال لي المبرّدُ خَلّ قومي
فقومي معشر فيهم نذاله

نشأ بالبصرة وشغف بالعلم لاسيّما النحو والتصريف ، فأخذهما عن المازني ، فلما توفى أخذ عن أبي عمر الجرمي ، ونبغ فيهما ولم يكن في وقته ولا بعده مثله .

رويت في علمه الأخبار عن المشهورين في زمانه من علماء المسلمين أشهرهم أبو بكر بن مجاهد الذي قال فيه : «ما رأيت أحسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم»[٢٩]. شهد له المؤرخون بأنّه كان يتصدر حلقة أستاذه المازني وهو حديث السن يقرأ عليه كتاب سيبويه . وكان هو في البصريين وثعلب في الكوفيين إمامي عصرهما وبينهما منافرة لم تعد حد المناقشة في الصناعة [٣٠].

ذاعت شهرة أبي العباس في البصرة ووصلت إلى مجلس الخلفاء في بغداد وسامراء، ولهذا نجد المتوكل يرسل إلى المبرد للقدوم إلى سامراء ليحكم في خلاف وقع بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان، فلما وصل المبرد من البصرة أقام فيها وظل ملازما المتوكل حتى قتل سنة ٢٤٧هـ[٣١].

ورد المبرد بغداد سنة ٢٤٧ هـ فارا من سامراء بعد مقتل المتوكل وكان إذ ورد بغداد ورد بلدا لاعهد له بأهلها فاختل وادركته الحاجة شهد صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه ليتسبب له القول فلم يكن عند من حضره علم فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ويوهم بذلك أنّه قد سأل ، وقد نجح في ذلك واسترعى انتباه الدارسين إليه، وأراد الزجّاج أن يفاتشه ويعنته وكان ذلك أوّل اتّصاله به [٣٢].

حكى الخطيب عن أبي الحسن العروضي عن أبي إسحاق الزجّاج انه قال : «كنت أقرأ على أبي العباس ثعلب ، وأميل الى قولهم ـــ يعني الكوفيين ـــ فعزمت على إعناته، فلما فاتحته ألجمني بالحجة وطالبني بالعلة ، وألزمني إلزامات لم اهتد لها ، فتبينت فضله واسترجحت وجددت في ملازمته» [٣٣].

وبعد ان رأى الزجّاج من المبرد ما رأى اعتزم ملازمته ، والتلمذة له ، وأجرى على المبرد ثلاثين درهما في الشهر هي ما كان يدخره من ايام عمله الخمسة من كل شهر لطلب العلم ووافق المبرد بعد ان اشترط انقطاعه عن ثعلب واطراحه كتب الكوفيين ، واذعن للامر ولازمه حتى برع في نحو البصريين ، ونبه ذكره في أصحاب المبرد ، ثم آلت رئاسة النحو البصري اليه بعد المبرد [٣٤]. ثمّ واصل المبّرد اشتغاله بتدريس النحو في مسجد بغداد حيث كون حلقة أخذ يؤمها تلاميذ ثعلب وغيرهم ممن اعجبته طريقة المبرد في عرض مسائل النحو.

● **براعته في الجدل والمناقشة**

يصور لنا ذلك الزجّاج أحسن تصوير في أول لقاء له مع المبرّد ، قال للمبرّد :

أتأذن ـ أعزك الله ـ في المفاتشة فقال أبو العباس : سلْ عمّا أحببت ، فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه فنظر الزجّاج في وجوه أصحابه متعجبا من تجويد أبي العباس للجواب فلما انقضى ذلك قال له أبو العباس:

أقنعت بالجواب؟ فقال : نعم قال: فإن قال لك قائل في جوابنا هذا : كذا ما أنت راجع إليه؟ وجعل أبو العباس يوهن جواب المسألة ويفسده ويعتل فيه :فبقي الزجّاج سادرا لا يحير جوابا ثمّ قال : إن رأى الشيخ ـ أعزه الله ـ أن يقول في ذلك فقال أبو العباس : فإنّ القول على نحو كذا فصحح الجواب الأول وأوهن ما كان أفسده [٣٥] .

فبقي الزجاج مبهوتا ثمّ قال في نفسه : قد يجوز أنه كان حافظا لهذه المسألة مستعدا للقول فيها، فسأله عن مسألة ثانية ففعل المبّرد ما فعله في المسألة الأولى حتى سأله أربع عشرة مسألة يجيب عن كل واحدة منها بما يقنع ثم يفسد الجواب ثمّ يعود إلى تصحيح القول الأوّل [٣٦].

وقال في موضع آخر : « فإذا قلت : إذا أتيتني وجب أن يكون الاتيان معلوما ، ألاترى الى قول الله عزّ وجلّ (إذا السماء انفطرت) [٣٧] و(إذا الشمس كورت) [٣٨] و(إذا السماء انشقت) [٣٩] أنّ هذا واقع لامحالة» .

ولايجوز أن يكون في موضع هذا (إنْ) ، لانّ الله ـ عزّ وجلّ ـ يعلم ، و (إنْ) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر . وليس هذا مثل قوله (إنْ ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف) [٤٠] لأنّ هذا راجع اليهم .

وتقول : «آتيك إذا احمرّ البُسْر . ولو قلت: آتيك إن احمرّ البُسْر ـ كان محالا ، لأنه واقع لامحالة»[٤١].

وقال : إذا قال لك رجل : رأيت رجلا ، فإنّ الجواب أن تقول : مَنا ؟ أو قال : جاءني رجل، فإنّك تقول : مَنُو ؟ أو قال : مررت برجل ، قلت : مَنِي ؟ وليست هذه الواو والياء والالف اللواحق في (مَنْ) إعرابا ، ولكنهن لحِقْن في الوقف للحكاية . فهنّ دليل ، ولسن بإعراب .

فإن قال : جاءني رجلان ، قلت : مَنانْ ؟ وإن قال : مررت برجلين أو رأيت رجلين ، قلت : مَنَيْنْ ؟ وإن قال : رأيت امرأةٌ أو هذه امرأةً أو مررت بامرأةٍ قلت : مَنَهْ ؟.

فإن قال : جاءَتني امرأتان . قلت : منتان ؟ تسكِن النون ، كما كانت في (مَنْ) ساكنة .

وإنما حرّكتها فيما قبلُ من أجل ما بعدها ، لانّ هاء التأنيث لاتقع إلّا بعد حرف متحرك ، وكذلك حروف التثنية ، أعني : الياء ، والالف لسكونهما [٤٢].

● **الزّجّاج :**

أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل ، غلب عليه اسم الزّجّاج لأنّه كان أوّل حياته يحترف خراطة الزجاج ،فهو لقب مهنته، كان دخله من هذا ضئيلا لايكاد يتجاوز الدرهمين وربما كان درهما واحدا أو درهما ونصف الدرهم، وتاقت نفسه مع ما هو فيه من إقلال ، الى التعلم ومعرفة اللغة فاتصل بمجلس ثعلب ، وظل يستفيد منه حتى وفد المبرّد على بغداد واتخذ له حلقة في المسجد فانتقل الزجّاج الى حلقة المبرّد وترك ثعلبا [٤٣].

عرفه أبو سعيد السيرافي (ت ٣٨٦هـ) بقوله : «ومن أصحاب أبي العباس محمد بن يزيد أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجّاج وأبو الحسن بن كيسان واليهما انتهت الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد غير أنّ أبا اسحاق كان اشد لزوما لمذهب البصريين وكان ابن كيسان يخلط المذهبين»[٤٤] .

قال الوزير القفطي (ت ٥٧٧هـ)فيه : «كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت أبا العباس المبرّد توفي سنة ٣١١ هـ ، وهوصاحب

كتـاب معاني القـرآن ، كان من أهـل الفضل والدين ، حسـن الاعتـقـاد ، ولـه مؤلفـات حسان في الأدب» [٤٥].

كان المـبرّد لايعلّـم إلّا بأجر ولايبـذل لتلاميذه من علمـه إلاّ بقدر مـا يدفعون له مـن المال ، وكان ينتظربهـذا أن يكـون حـظ الزّجاج من تعليم أسـتاذه ضئيـلا جدا ، لكنـه عرض أن يدفع للمـبّرد درهما واحدا كل يوم ، ما امتدت حياتهما ، سـواء احتاج الى التعلم أو اسـتغنى عنـه ، ويمنحه المبرّد في مقابلـة ذلك من العلم أقـصى ما يبـذل مـن التعليم ، وقبـل المبرّد ما عرضه الزجّاج ، فلزمه ، وكان يخدمه في أموره مع ذلك ، وكان هذا تلميذا ذكيا مجدا اسـتطاع أن يحصـل في زمـن قصـير عـلى قدر واسـع مـن المعلومات ، واكتسـب الى جانـب ذلك ثقة أسـتاذه، وكان من تلاميـذه المقربين اليه، وقد وفّي كلّ منهمـا لصاحبه ، وظـل الزّجاج يدفع لأُسـتاذه هذا الأجـر ، ولما اتسـع رزقه بذل له عطاء أكثر وبعث اليـه بالهدايا الثمينة ، وظل يرعـاه في آخر حياته ويرفق بـه في كبره حتى انتقل المبرّد الى جوار ربه راضيا عن تلميذه [٤٦].

وكان مـن أتباع أحمد بن حنبـل مؤثرا لمذهبه حتى كان آخر ما قالـه وهو على فراش الموت: «اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل» [٤٧]

وفي كتابه معاني القرآن مواضع كثيرة تفصح عن قـوة إيمانه وثبـات عقيدته، واسـتعداده للدفاع عن الإسلام ، كما يبدو تورعه في تحذيره من قراءة لم ترد وإن كانت اللغة تجيزها .

وإذا أغضينـا عـن عدم شرعيـة التعاقد بينه وبين المبرّد باعتبـاره نوعا من التعاون العلمي دفعت الحاجة الزّجاج اليه ، فاننا نجد الزّجاج أخل مرة بهذا العقد ، فشـغلته شؤون الوزير عـن بـرّ أسـتاذه وانقطـع عنـه مـدة ، وكان المبرّد قد أسـن وأصبح في حاجـة لهذا العون ، فاستدعى الزّجاج وسأله: أيكون حسد الإنسان من غير نفسه ؟ قال : لا ، قال المبرّد : فما معنى قول اللـه تعالى (ودّ كثير مـن أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسكم) [٤٨] .

ولم يسـتطع الزّجاج أن يجيب ، وقال المبرّد: إذن فأعلـم أنـه قد بقى عليك أشـياء كثيرة لم تتعلمها .

وعاد الزّجاج الى بر أسـتاذه ، فهو إذن أهمل أسـتاذه إذ شعر أنه اسـتقل بنفسه واستغنى عنـه ، ثم دفعه شـعوره بالحاجة اليه الى برّه، والمـبرّد بـدوره لايريد أن ينال مـن عطفه على سبيل الصدقة ، ولا حتى طلبا للوفاء بما تعاقدا عليه ، ولكنه أشـعره بنقص علمه واسـتمرار حاجته للاستفادة من أستاذه [٤٩].

● الخاتمة:

ـ تـرددت في مؤلفـات المحدثـين تسـميات مثـل (مدرسـة بغـداد) أو (نحاة بغـداد) أو (المدرسة البغدادية) أو (المذهب البغدادي) أو (البغداديين) وهم يعنـون بذلك مذهبا نحويّا خاصّا لا هو بالبـصري الخالص ، ولا بالكوفي الصريـح ، وإنّما هو مذهـب يقوم على الإطلاع عـلى النحويـين، والخلط بينهما ثـم الانتخاب منهما لتكوين آراء خاصّة بهذا الدارس أو ذاك انتخبها من آراء الفريقين .

ـ وقـد وقـف المحدثـون مـن وجود مدرسـة بغداديـة أكثر مـن موقف ، وتتضـح آراؤهم بالآتي : ذهب بعضهم إلى وجود مدرسـة ثالثة من البصريين والكوفيين وهم البغداديون، ومن أوائـل القائلين بهـذا جماعة من المسـتشرقين منهـم (فلوجل) ناشر كتاب (الفهرسـت) لابن

النديـم، وتابعـه بروكلمـان ،وتشـكك الفريق الثانـي في وجودها وقد مثل هـذا الرأي بعض الباحثـين منهم (جوتولد فايـل) محقق كتاب الإنصاف الذي شـكّك في وجود مدرسة جديدة قامـت عـلى أسـاس الانتخـاب ، وهنـاك مـن الباحثـين من ذهب في مدرسـة بغداد أكثر من مذهـب ، ويمثل هـذا الإتجاه الدكتـور مهدي المخزومي فقد اثبت في كتابه (مدرسة الكوفة) وجود مذهب نحوي يسمى (المذهب البغدادي) وسـمّاها أيضا (المدرسـة البغداديّـة) ، وأنكر وجودها في كتابه «الدرس النحوي في بغداد» .

ـ تحدثناعـن اثنـين مـن أبرز أعلام المدرسـة البغداديّـة وهما : أبو العبـاس محمد بن يزيد المـبرّد (ت ٢٨٥هـ) وأبو إسـحاق إبراهيم بن السري الزّجاج (ت٣١١هـ) .

الهوامش

(١) ينظر: الدرس النحوي في بغداد , الدكتور مهدي المخزومي ص ٨٠ .
(٢) المدارس النحويـة ، الدكتورة خديجة الحديثي، ص٢٠٤ .
(٣) ينظر: تاريـخ الأدب العربي جـ ٢/ص ١٢٧ ، والدرس النحوي في بغداد ،ص١٨٨ ـ ١٨٩ .
(٤) تاريخ الأدب العربي جـ ٢/ ص١٢٤ - ١٢٥.
(٥) ينظر: المصدر نفسه جـ ٢/ ص١٢٤ - ١٢٥ .
(٦) ينظر: المصدر نفسه جـ ٢/ ص١٢٤ - ١٢٥.
(٧) ضحى الإسلام جـ٢/ ص١٩٣.
(٨) المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي ، ص٢٠٦.
(٩) في أصول النحو،ص ٢١٧ ـ ٢٢٠ .
(١٠) أبو زكريا الفرّاء،ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧ .
(١١) ينظـر: ابـن الأنبـاري في كتابـه الإنصاف في مسائل الخلاف ،ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(١٢) ينظـر: المدارس النحويّـة ، ص٧، وتنظر منه الصفحات: ٢٤٥و٢٤٦ و٢٤٧ و٢٤٨ .
(١٣) ينظـر: الإيضاح في علل النحـو، الصفحات ٩ و١٠ و٦٨ و٧٩ و١٣١ .
(١٤) ينظر: نظرات في اللغة والنحو ،ص٩.
(١٥) ينظر: حياة الشعر في الكوفة ،ص ٢٤٢.
(١٦) الشعر في بغداد ،ص١٧٦.
(١٧) ما ينصرف وما لاينصرف ،ص١٢.
(١٨) هامش مقدمة كتاب الإنصاف .
(١٩) أبـو عـلي الفـارسي،ص ٤٤٧ وينظر منه،ص ٤٤٥ـ ٤٤٧ .
(٢٠) ابن جنّي النحوي،ص٢٥١ـ٢٥٢ و٢٥٤ـ٢٥٥ .
(٢١) مدرسة الكوفة ،ص٩٠ ـ ٩١ .
(٢٢) المصدر نفسه ،ص٩٠ ـ ٩١ .
(٢٣) مدرسـة الكوفـة ،ص١٠٩ ، وتنظـر أقوالـه الأخرى الصفحات: ١٠٣ و١١٠ و١٨٧ .
(٢٤) الدرس النحوي في بغداد ،ص٥ .
(٢٥) المصدر نفسه ،ص ١٢٥.
(٢٦) الـدرس النحـوي في بغـداد ،ص١٨٦ ،ومـا بعدها.
(٢٧) ينظر: ترجمة في تاريخ بغداد أو مدينة السلام للخطيـب البغدادي جـ ٣/ص٣٨٠ ،ترجمة برقم (١٤٩٨) .
(٢٨) ينظـر أخبار النحويين البصريين لأبي سـعيد السيرافي ،ص٩٦و٩٧ .
(٢٩) المصدر نفسه ص٩٧ وينظر المدارس النحوية للدكتورة خديجة الحديثي ،ص١١٩ .
(٣٠) ينظـر: معجم المطبوعـات العربيـة والمعرّبة جمعه ورتبه يوسف إليان سركيس، رقم ١٦١٢ .
(٣١) ينظـر: المـدارس النحوية للدكتـورة خديجة الحديثي ،ص١١٩ و١٢٠ .
(٣٢) ينظـر: المقتضـب للمـبّرد ،ص١٣ (المقدمة) والدرس النحوي في بغداد ،ص١٢٤ .

(٣٣) الدرس النحوي في بغداد ،ص١٢٥ .
(٣٤) ينظـر: إنبـاه الرواة على أنبـاه النحاة للوزير القفطي، جـ ٣/ ص٢٥٠ .
(٣٥) طبقـات النحويـين واللغويـين للزبيـدي، ص١١٨ ـ ١١٩.
(٣٦) المصدر نفسه ،ص١١٨و١١٩ .
(٣٧) الانفطار١ .
(٣٨) التكوير١.
(٣٩) الانشقاق ١.
(٤٠) الانفال ٣٨ .
(٤١) المقتضب جـ٢/ ص٥٦ .
(٤٢) المصدر نفسه جـ ٢/ ص٣٠٦ .
(٤٣) ينظـر: ترجمته في :أخبار النحويين البصريين لأبي سـعيد السيرافي، ص ١٠٨، و طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ،ص١١١ وإنباه الرواة على أنباه النحـاة للوزيـر القفطـي جـــ١/ص١٥٩ ،ترجمة برقـم (٩٦) , ومعجم الأدبـاء لياقوت ترجمته برقم (٩) جـ١/ص ١٣٠ -١٣١ والعقد الثمين في تراجم النحويـين للحافـظ شـمس الدين محمد بـن أحمد الذهبـي، ص ١٤٩، واللبـاب في تهذيـب الأنسـاب، تأليـف عـز الديـن بن الأثـير الجزري جـــ٢/ ص ٦٢، وبغيـة الوعـاة جلال الدين السـيوطي جـ١/ ص٤١١ومعجم المؤلفين عمر كحالة جـ١/ص٣٣.
(٤٤) ينظر: أخبار النحويين البصريين، ص١٠٨ .
(٤٥) ينظر:إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ١ / ص١٦٠.
(٤٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ١ / ص١٩.
(٤٧) قـال ياقـوت صاحب كتـاب معجـم الأدباء: (وآخـر ما سُـمع منه : اللهـم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل)، ينظر منه جـ١/ص ١٣٠ .
(٤٨) البقرة ١٠٩ .
(٤٩) ينظر: مراكز الدراسات النحوية للدكتور عبد الهادي الفضلي ، ص٤٨ .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم .
ـ ابن الأنباري في كتابه الإنصاف في مسائل الخلاف، الدكتـور محيـي الديـن توفيـق إبراهيـم، الموصـل ١٣٩٩هـ ـ١٩٧٩م .
ـ ابـن جنّـي النحـوي ، الدكتـور فاضـل صالـح السامرائي، بغداد ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .
ـــ أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو واللغة ، الدكتور أحمـد مكي الأنصـاري ، نشر المجلـس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .
ـ أبـو علي الفارسي ـ حياتـه ومكانته بين أئمة اللغة العربيـة وآثـاره في القـراءات والنحـو، الدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٣٧٧هـ .
ـ إنبـاه الرواة على أنباه النحاة ، جمال الدين علي بن يوسـف القفطـي (ت ٥٧٧هـ) ، تحقيـق محمد أبو الفضـل إبراهيم ، الطبعـة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية , القاهرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠م.
ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيـين ، أبو البركات بن الأنباري ، تحقيق محمد محيـي الدين عبـد الحميد ، الطبعـة الثانية ،مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
ـ الايضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجّاجي،تحقيق الدكتـور مـازن المبـارك ، الطبعـة الثانيـة بيروت، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٨٣م .
ـ بغيـة الوعـاة في طبقات اللغويـين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السـيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٤م.
ـ تاريـخ الأدب العربـي ، كارل بروكلمـان ، ترجمة الدكتـور عبـد الحليم النجـار ، دار المعـارف بمصر ١٩٦١م.
ـ تاريـخ بغـداد أو مدينة السـلام للحافـظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، الناشر دار الكتاب

العربي ، بيروت ـ لبنان .
ـ حيـاة الشـعر في الكوفـة إلى نهايـة القـرن الثاني للهجرة ، الدكتور يوسـف خليف ، القاهرة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .
ـ الـدرس النحـوي في بغـداد ، الدكتـور مهـدي المخزومـي، وزارة الاعـلام ـ الجمهوريـة العراقيـة سلسلة الكتب الحديثة ، مطبعة السعدون، ١٩٧٤.
ـ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثاني الهجري، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري، بيروت ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م .
ـ ضحى الاسـلام ، أحمد أمين، الطبعـة الثالثة، دار الكتب المصرية ، ١٣٣٨هـ ـ
ـ طبقـات النحويـين واللغويين ، أبو بكـر الزبيدي (ت٣٧٩هـ) ، تحقيـق محمد أبو الفضـل إبراهيم مصر ١٩٥٤م.
ـ العقـد الثمين في تراجم النحويين للحافظ شـمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق واعداد د. يحيى مـراد ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ، طبع ونشر وتوزيع دار الحديث القاهرة .
ـ في أصول النحو ، سعيد الأفغاني ، الطبعة الثانية، دمشق ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .
ـ كتاب أخبار النحويين البصريين تأليف أبي سعيد الحسـن بن عبـد اللـه السـيرافي (ت٣٨٦هـ)اعتنى بنـشره فريتس كرنكو ، بيروت المطبعة الكاثولكية ، منشـورات معهد المباحث الشرقية بالجزائر ، خزانة الكتب العربية، ١٩٣٦م .
ـ اللبـاب في تهذيب الأنسـاب، تأليف عـز الدين بن الأثير الجزري ، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد .
ـ مـا ينصرف وما لاينصرف ، أبو إسـحاق الزجّاج ، تحقيـق هدى محمود قراعـة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة ١٣٩١هـ ـ١٩٧١م .
ـ المـدارس النحويّـة ، تأليـف الدكتـورة خديجة الحديثي ، الطبعة الثالثة، مدققة ومنقحة، دار الأمل للنشر والتوزيع ـ أربد ، الأردن،١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .
ـ مدرسـة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، الدكتـور مهـدي المخزومـي ، بغـداد ١٣٧٤هـ ـ١٩٥٥م .
ـ مراتـب النحويين ، أبو الطيـب عبد الواحد بن علي اللغـوي الحلبي ، حققه محمـد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٥٤م .
ـ معجـم الأدبـاء لياقـوت، مطبوعـات دار المأمون، الطبعـة الأخيرة ، دار إحياء الـتراث العربي ، بيروت لبنان.
ـ معجـم البلدان ، ياقـوت الحموي (شـهاب الدين أبي عبد الله الرومي ت٦٢٦هـ) دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، د. ت .
ـ معجـم المطبوعات العربيـة والمعرّبة جمعه ورتبه يوسـف إليـان سركيـس ، مطبعـة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م .
ـ معجـم المؤلفين تراجـم مصنفي الكتـب العربية، تأليـف عمـر رضا كحالـة ، النـاشر مكتبـة المثنى بيروت، دار إحياء التراث العربي.
ـ مراكـز الدراسـات النحويّـة تأليـف الدكتور عبد الهادي الفضلي ، الطبعة الأولى مكتبة المنار،الأردن ـ الزرقاء ،١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
ـ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج ، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ) شرح وتحقيق الدكتورعبد الجليل عبده شلبي خرج أحاديثه الأستاذ علي جمال الديـن محمـد ، دار الحديث القاهـرة ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .
ـ المقتضب ، أبو العباس المبرّد(ت ٢٨٥ هـ)، تحقيق محمد عبـد الخالق عضيمـه ، عالـم الكتب، بيروت (د.ت) .
ـ نظـرات في اللغـة والنحـو ، طه الـراوي ، الطبعة الأوّلى ، بيروت ١٩٦٢م .

Baghdad grammar school the beginning and development

By: Dr. Huda Naji Al–Budairi
(Center of revival of Arabian science Heritage)
University of Baghdad

Abstract

Advent

The great shift witnessed by Baghdad in civilization and thought has paved the minds of scholars to accept the visual form influenced by phi–losophy and based on controversy and explanation and protest This was explained in the clearest advent of the Al–Mbbrd (died 285 AH) Bagh–dad, in his grammar influenced by the philosophy of speech, Baghdad advent was A shift to the grammatical study, Al–Mbbrd almost settled in Baghdad,What in the coolant located even drew the attention of the scholars to himself, they accepted and discussed with him in matters of language and grammar, They saw a new model and a pattern in the lesson they had not given before The days did not end until he joined his council intelligent student Thaealb (died 291 AH), n the vanguard Abu Ishaq Al–Jaraj (died 311 AH), who was cut off from the Thaealb's council by Al–Mbbrd Taking and read to him Seiboye book (died 180 AH).